ملامح لسانية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين

Linguistic features In a book of al-jahiz " al-bayan waltbien"

نعماني أسيا[1]*

[1] جامعة بومرداس –الجزائر– a.namani@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2022-06-07 تاريخ القبول: 2022-11-04 تاريخ النشر:2022-12-27

ملخص البحث تندرج هذه المقالة ضمن محور التراث اللغوي في الفكر اللساني المعاصر بين القطيعة والتواصل، والهدف منها هو إبراز جهود أحد أعلام الحضارة العربية في هذا المجال وهو الجاحظ ،الذي غفلت عنه الدراسات الحديثة بالإشارة والتنويه، وتقديم ولو جزء يسير من جهوده اللغوية في مجال اللغة في شكل مقاربة في نظام اللغة واللسانيات. والاستدلال على أن علم اللسان الحديث لم ينشأ من العدم، بل كان عصارة لما أفرزته العصور السابقة من بحوث في أسرار اللغات، وقد وقف علماء اللسانيات في القرن التاسع عشر موقفا سلبيا من التراث اللغوي ونفوا صفة العلم عن كل نظرية أو رأي سبقهم، فكم من مفهوم ظن أنه جديد وإذ به يتبين أنه ضارب في عمق التاريخ.

كلمات مفتاحية: لسانيات، اللغة عند الجاحظ، تقاطع اللسانيات مع الدرس اللغوي العربي.

* **المؤلف المرسل: نعماني أسيا**

Abstract: This intervention falls within the axis of linguistic heritage in contemporary linguistic thought between estrangement and communication, the aim of which is to highlight the efforts of one of the flags of Arab civilization in this field, which is Al-Jahiz, who was overlooked by modern studies by reference and mention, and to provide even a small portion of his linguistic efforts in the field of language in the form of An approach to the language and linguistics system. And the inference that modern linguistics did not arise out of nothing. Rather, it was a sap for what was produced by previous eras of research in the secrets of languages. Linguists in the nineteenth century stood a negative stance of linguistic heritage and denied the character of science from every theory or opinion preceding them. He thought that he was new, and with it was found that he was struck by the depth of history

Keywords: Linguistics, al-jahiz linguistic opinions, the intersection of linguistics with the Arabic linguistic lesson.

1.مقدمة: حفل التاريخ اللغوي العربي بآراء لغوية تؤكد دقة الملاحظة والقدرة على التحليل والعبقرية الفذة للشخصيات التي أنتجتها، والتراث العربي زاخر بمثل هذه الشخصيات التي استطاعت اختراق أسرار اللغة، وتقاطعت مع ما وصل إليه المحدثون في مجال اللغة واللسانيات تحديدا.

والتركيز على الواقع اللساني واللغوي العربي راجع إلى أن تراثنا الذي انشغل عنه الدارسون إنما فيه من العلمية والموضوعية ما يضاهي الدرس الحديث، لولا دراسة اللغة لا في ذاتها وإنما لأغراض أخرى، وعدم ضبط المصطلحات والمنهج المعياري، ورغم هذا وذاك فقد أدى القدامى ما عليهم، والدور الآن لزعماء الحداثة لتأصيل التراث وتطويره وسد ثغراته والمضي قدما نحو رد الاعتبار للتراث العربي.

واختيار العناصر المشكلة للمقال تعكس وجه الاسقاط بين الدراسة اللغوية التراثية خلال القرن الثالث الهجري، والدراسة اللسانية الحديثة التي تزعمها دي سوسور ومن جرى مجراه، وعليه ما سيعرض من مادة إنما هي محاولة للوصول إلى ما يؤكد تكامل الدرسين القديم والحديث وتعالقهما، ويتمثل ذلك في جزئيات على شكل اسقاطات ولمسات لسانية لا تفسر إلا في ضوء ما تسمح به الخصوصية التفكير اللغوي التراثي، وبناء على ذلك يجدر القول أن تعيين مواطن التلاقي أو تقديم قراءات لتقريب الدرسين تبقى نسبية ، وهي تتمثل في الخطوط العريضة والنقاط البارزة كالمنهجية والموضوعية التي تنظم المادة اللغوية واللسانية، والاشكالية المطروحة هنا هي ما مدى التقاء الدرس اللغوي القديم مع الدرس اللساني الحديث، وما هي مظاهر هذا الالتقاء عند الجاحظ؟.

2.**الالتقاء والتقاطع بين العلمين في التسمية:** تظهر العلاقة التي تربط الدراسات اللغوية العربية القديمة باللسانيات الحديثة أولا في تسمية العلم الذي يعنى بهذه الدراسات، وهو علم اللغة، فاللغة قديما يقصد بها كلام العرب أي ما تنطق به من ألفاظ وتتواصل به من عبارات أما حديث "فهي مصطلح يستعمله الناقد أو اللساني للدلالة علي رموز متعارف عليها صوتيا ودلاليا داخل المجتمع، وهي تتكون وتتشكل بعيدا عن إرادة الفرد، تتجدد مفرداتها في ظل الاكتشافات العلمية والصناعية، وفي ظل النهضات الفنية والفكرية" .[2]

أما مصطلح علم اللغة فانتشر في أوساط النحويين واللغويين منذ عصور غابرة، وارتبط خاصة بحديثهم عن النحو وفروعه، ويقابله في اللاتينية LINGUISTIQUE أو اللسانية أو الألسنية فهذا المصطلح متداول في الدراسات العربية بنفس المفهوم الغربي، حيث ورد أول مرة عند القرطبي في تفسيره لقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن من البيان لسحرا. قائلا " فالرجل يكون على حق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه، وإنما يحمد بحمد علماء البلاغة واللسانة ما لم يخرج إلى حد الاطناب".[3]

ولعل أقرب مصطلح إلى المفهوم الحديث هو علم اللسانة أو علم اللسان، الذي يحقق لنا الأصالة والمعاصرة في الوقت نفسه، ولتقريب المفهوم أكثر نسوق بعض السياقات التي ورد فيها، أهمها السياق القرآني، قال جل وعلا : "هذا لسان عربي مبين" ، " لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين"، وقوله "فإنما يسرناه بلسانك"، فكلها تدل على اللغة، ثم ارتبط فيما بعد بمعجم لسان العرب لابن منظور، يقول في مادة لسن : " اللسان يساوي اللغة...وحكى أبو عمرو، لكل قوم لسن أي لغة يتكلمون بها، واللسن هو الكلام واللغة".[4]ثم انتقلت دلالة اللسان إلى معنى آخر عند ابن خلدون، حيث اعتبر اللسان اللغة، وأصبحت اللغة تدل على اللهجة، ثم أخذ المعنى في التوسع على يد العلماء الذين جاؤوا بعده، وقد حصر ابن خلدون في مقدمته علوم اللسان العربي في أربعة أركان هي: " اللغة، النحو البيان والادب".[5]

ومن هنا تبين أن اللسان العربي يتفق مع الدرس اللساني الحديث في التسمية، يجزم عبد الكريم مجاهد بذلك قائلا: " مصطلح علم اللسان هو المقابل المناسب والدقيق من حيث اشتقاقه ودلالته ومفهومه للمصطلح الأوروبي" .[6]

3.ملامح الفكر اللساني عند الجاحظ:

1.3 مقاربات في بنية اللغة ووظيفتها عند الجاحظ:

جاء في قاموس النقد الأدبي أن " البنية مفهوم يشير إلى النظام المتسق الذي تتماسك كل أجزائه بمقتضى الرابطة، تماسكا يجعل من اللغة مجموعة منتظمة من الوحدات أو العلامات التي تتفاضل ويحدد بعضها بعض على سبيل التبادل".[7]

كانت نظرة الجاحظ للغة نظرة كلية شمولية قريبة من التصور الحديث، يفسرها ذلك التصنيف الذي وضعه كنتيجة لوضوح الرؤية واكتمال المفهوم بتفاصيله وأبعاده، كما أن تصوره لها يختلف اختلافا جوهريا عن معاصريه، لأنه ينطلق من البيان مشتملا اللسان واللغة، وهي ترتكز على مبادئ

خاصة تلائم طبيعة وثقافة عصره، " ويرجع السبب في اشاراته الضمنية لأسسها ومبادئها، إلى أن أهل عصره كانوا على دراية بها، فلم ير من داع إلى الخوض فيها".[8] وعليه فإن مفهوم البنية المتعلق بالنظام حاضر في أقدم الدراسات اللغوية ووصل صداه إلى كتابات الجاحظ خاصة البيان والتبيين فما هي اجزاء هذه البنية عنده؟، وما الذي جعل من اللغة في نظره بنية متماسكة من العناصر والوحدات؟ مع العلم أن تصوره للغة متعدد الجوانب، ثم إنه في صدر طويل من كتابه يتحدث عن عناصر ومواضيع لسانية عربية لا يمكن وصلها بمجال دون آخر.

إن المباحث الصوتية التي تتصدر المؤلف ليست خارجة عن تصوره للغة، وحتى تلك الجزيئات المتعلقة بأصل اللغة، واللفظ والمعنى والنموذج المثالي للخطابة، وكذا التطور الذي لحق لغة العرب ليس من باب الصدفة، وإنما تنبئ عن فلسفة لغوية لها أسسها وخصائصها البنوية. يقول الجاحظ : "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة في فكرهم خفية مستورة بعيدة وحشية محجوبة مكنونة موجودة في معاني معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، و على ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك الألفاظ ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها".[9] وهذا يعني أن باللغة فقط يستطيع الانسان أن يتواصل مع غيره فيكشف عن مشاعره وأحاسيسه وأفكاره ومعارفه متطلباته وحاجياته.

ولما ارتبط مفهوم البيان بالافصاح والكشف والاظهار في معظم السياقات التي ورد فيها، بالضرورة يتوافق ووظيفة التعبير والتواصل عند علماء اللغة المحدثين، وإن كان صالح بلعيد قد عده أساس النظم إذ يقول: " أرى الجاحظ وضع الأسس الأولى لمعنى النظم الذي يتمثل في البيان، وهو التبليغ والتوصيل وإجلاء للحقيقة وتعبير المتكلم عما في نفسه"[10].

فإذا كانت المدارس الحديثة تؤكد أن الوظيفة الأولى والأساس للغة هي الوظيفة التواصلية التعبيرية، فإن الجاحظ من خلال إشاراته التي ضمنها لبيانه لم يخرج عن هذه الوظيفة، من ذلك قوله عن الاحنف بن قيس " أنه صاحب بيان، لأنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه" [11]، ويستدل أيضا عن معنى البيان بقول صحار العبدي الذي يقول:" البيان هو شيئ تجيش به صدورنا فتقذف به ألسنتنا" [12].

ومما سبق فإن الجاحظ نظر إلى البيان من زاوية وظيفية وهي القدرة على إظهار ما غمض من المعاني، وبالعودة إلى الأمثلة التي ساقها في هذا الموضوع نصادف تراكيب لغوية متفاوتة تبعا لكفاءة الأفراد وسليقتهم اللغوية منها قوله: "إنما عني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري العرب الفصحاء، وأصحاب هذه اللغة اي الأجنبية لايفقهون قول قائل مكره أخوك لا بطل وإذا عز أخوك فهن" [13].

وتظهر دقة الحس اللغوي الجاحظي في كونه استطاع أن يفرق بين اللغة كتنظيم قائم بذاته، وموزع ضمنيا على الجماعة المنتمية إلى اللغة ذاتها، وبين الأداء كاختيار حر نابع من شخصية الفرد المتكلم، وهو استعمال تزامني ضمن سياق معين. والأداء الكلامي لا يخرج عندهم عما سمي لديهم حدود السليقة، والطبع، والملكة اللغوية، الموسومة باللاشعور، لذلك كان العرب لا يسمعون إلا للعرب الفصحاء الذين لم يلحق لغتهم للحن وتحريف[14]، وهذه النظرة تصب في بحر النحو التوليدي الذي جاء به تشومسكي، وأقامها كمبدأ لنظريته التوليدية التحويلية التي تؤكد أن اللغة ظاهرة فطرية للانسان دون غيره.

ومن جهته دي سوسور أكد ما قال به الجاحظ عن اللغة والأداء وقال أنه " يوجد لدى كل فرد ملكة يمكن أن نطلق عليها ملكة الكلام....وتتعذر استعمالها بصورة ملموسة إلا متى توفر للمرء

عامل آخر من الخارج هو اللغة" .[15]فيقرر كل من الجاحظ ودي سوسور بأن اللسان رصيد يستودع في الأشخاص الذين ينتمون إلى فصيلة لغوية واحدة ، بفضل مباشرتهم للكلام " وهو نظام نحوي موجود بصفة كامنة في أدمغة تلك الجماعة، كل فرد بصفة جزئية. ".[16]

وإذا كانت اللغة عند دي سوسور نظام من العلامات المتعارف عليها، فقد أدرك الجاحظ أهم عنصر في ذلك النظام بشكله الخطي الكتابي والشفوي الصوتي، وتكتمل رؤية الجاحظ للغة وتندمج مع المحدثين عندما لا يقتصر على المكتوب دون المنطوق، ويشير إلى الأخير على شكل تأدية كلامية في قوله: . "..ولا بين الحروف المجموعة والمصورة من الصوت المقطع في الهواء ومن الحروف المصورة من السواد في القرطاس، واللسان يصنع في جوبة الفم وهوائه الذي في جوف الفم، وخارجه وفي لهاته، وباطن أسنانه مثل ما يصنع القلم في المداد والهواء والقرطاس، وكلها صور وعلامات وخلق مواثل ودلالات، فيعرف منها ما كان في تلك الصور، لكثرة ترددها على الأسماع ويعرف منها ما كان مصورا من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار".[17]. فالخط والكتابة عنده أيضا لغة.

ويقف جنبا إلى جنب عندما بعمم ظاهرة البيان ويجعلها ميزة لكل لسان، يقرر ذلك بقوله: "بالبيان تفاخر العرب وتفاضلت أصناف العجم"[18]، وكذا في قوله عن موسى بن يسار الأسواري: "كانت فصاحته بالفارسية تضاهي فصاحته بالعربية، فلا يرى بأي لغة هو أبين" .[19]ويذهب إلى أعمق من ذلك حين يقول عن آية الله في خلقه "أن جعل لهم لسانا وخصهم بالبيان، ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقلل وجعل آلة البيان بها يتعارفون، والترجمان الذي يرجعون إليه عند اختلافهم" .[20]

وهو ما يوحي بأنه أدرك أن نظام اللغة شيء مشترك بين جميع اللغات، باعتبار ان اللسانيات الحديثة تدرس اللسان البشري، ومن دون شك أنه يقصد بآلة البيان الجهاز النطقي المسؤول عن انتاج

اللغة، ويؤكد من جهة أخرى أنها ظاهرة اجتماعية بها يتواصل البشر ويعبرون عن مختلف أغراض حياتهم، وبذلك يتقاطع مرة أخرى في وظيفة اللغة التي هي مؤسسة اجتماعية وظيفتها الأساسية التبليغ ومؤسس المنهج البنوي دي سوسور.[21]

وتوصل الجاحظ إلى هذا المعنى انطلاقا من الوظيفة الأولى للغة، وهي التواصل وكشف الكامن في الصدور " فالوسيلة تدور حول الذكر والاخبار والاستعمال، والوظيفة ترجع إلى التقريب من الفهم وإظهار الخفي وهي وظيفة اللغة بصفة عامة " .[22]

2.3 اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول والعلاقة بينهما:

إن المتمعن المدقق فيما خلفه الجاحظ أثناء حديثه عن اللغة ، يجد أنه يوظف ثلاث مصطلحات تتداخل فيما بينها وهي الاسم واللفظ والمعنى، إذ يقول: "واعلم أن حكم الألفاظ خلاف حكم المعاني، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة".[23]

وهذا يعني أنه يعطي للمعاني مفهوم اللانهاية، أما الأسماء فهي محددة، وكأنها تعجز عن الاحاطة بكل المعاني، وفي موضع آخر يوظف المعاني، والألفاظ والأسماء في سياق واحد إذ يقول: " إنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني".[24] وهنا يبرز الفرق جليا فالمعاني هي الأفكار والأسماء هي الصور الصوتية أو اللفظية لها، والمقصود بقوله أنه لما عجزت الأسماء المتعارف عليها في اللغة عن مجاراة المعاني كان لا بد من ظهور الاصطلاح، ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يؤكد أن الظاهرة اللغوية قائمة على المتصورات اي المعاني والأصوات إذ يقول: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج" .[25]

واستناد إلى تعاريف المحدثين يصبح اللفظ هو الدال والمعنى هو المدلول، إذ يرى سوسور أن الدوال اللغوية تقوم على مادة قوامها الدال ومضمون يحل هذا المحل هو المدلول، ورغم أن الجاحظ لم يذكر هذين المصطلحين بلفظيهما إلا أنه لمح إلى خصائصهما حين يقول: " المعاني قائمة في صدور الناس" .[26] فهو يجعل من المدلولات أي الأفكار شيئا خفيا مستورا وموجودا معدوما، ما لم يظهر في شكل تعاقبات صوتية للسامع، وهو ما يمثل المدلول عند دي سوسور باعتباره الصورة الذهنية، ويواصل الجاحظ كلامه قائلا: إنما يحيي تلك الألفاظ ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها" .[27]أي ذكرهم لها باللسان واستعمالهم اللغة للأخبار عن تلك المعاني فيصبح الخفي ظاهرا والغائب شاهدا والبعيد قريبا، وهكذا تمتزج المعاني مع الألفاظ لتشكل اللغة، أي من التقاء اللفظ بالمعنى والدال بالمدلول الصورة الصوتية بالصورة الذهنية.

والجاحظ عندما يجعل من اللغة شيء وجد لالتقاء المعنى واللفظ فهو يشير ضمنيا إلى أن اللغة هي صورة مشكلة من التقاء هذا الثنائي، وإن كان سوسور يميز بين المادة التي تبنى عليها اللغة وهي الأصوات والمتصورات، أما ما يمثل قوام اللغة عنده ويريد به الشكل فهو تشكل الأصوات والمعاني في شكل ما، ولما كانت اللغة صورة لا مادة فقد أعطى لها سوسور حيزا واسعا في نظريته البنوية.

ومن خلال ما سبق نجد أن الجاحظ يتوافق مع سوسور في هذه النقطة المحورية، فالحدث اللغوي عند كل منهما: لا يجري في مستوى واحد (الدال والمدلول)، بل يجري في مستوى تشكلهما. وقد عد دي سوسور الصور الناتجة عن ذلك الاقتران هو جوهر اللغة يعبر عن العلاقة بينهما قائلا: "والاسم بلا معنى لغو كالظرف الخالي والاسماء في معنى الابدان والمعاني في معنى الأرواح واللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح" .[28]

وجاءت اللسانيات الحديثة مؤكدة ومؤيدة لهذا القول، وجعلت الفكر خارج اللغة شيئا مبهما يقول صالح بلعيد، في سياق حديثه عن ثنائية الشكل والمادة، " فالفكر إذا قطعناه عن التعبير باللغة لا يعدو أن يكون شيئا مبهما من الأصوات، ليست بأفضل من الأفكار فهي مادة مبهمة فيقتضي بذلك الصوت الفكر" .[29]

ويعبر سوسور عن رأيه قائلا "وعلاوة على ذلك ومهما يكن في الجانب الذي نباشر منه اللغة فإنها تمثل على الدوام وجهين يتطابقان وليس لأحدهما قيمة إلا بالآخر".[30] وهذا يصب فيما قاله الجاحظ عن اللفظ والمعنى، وعبر عنهما بالروح والبدن، أما سوسور فقد مثل لشدة التحامهما بالورقة التي لا يمكن فصل أحد وجهيها عن الآخر إذ يقول: "ويمكن أن نشبه اللغة أيضا بورقة يكون الظهر هو الصوت، علما أنه لا يمكن تقطيع وجهها دون أن يقطع في الوقت نفسه ظهرها".[31]

وفي سياق حديثه عن الدلالات الخمس التي جعلها الجاحظ اساس نظامه اللغوي فهي تشمل جميع اصناف الدلالة اذ يقول " وجعل البيان على اربعة اقسام: لفظ وخط وعقد واشارة ".[32] وفي البيان والتبيين يقول:" وجميع اصناف الدلالات على المعاني من لفظ ومن غير لفظ خمسة اشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الاشارة ثم العقد ثم الخط ثم النصبة" .[33] وهو هنا يحصي اشكال الدلالة في هذا الكون من جماد وحيوان وانسان ويفرق بينها قائلا "ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية اختها وهي التي تشف لك عن أعيان المعاني في جملة، ثم عن حقائقها واقدارها وعن خاصها وعامها".[34] وبذلك يكون قد سبق سوسور الى القول بان علم اللغة يجب ان يكون فرعا من علم أوسع يشتمل على مختلف الدلالات المسمات عند الجاحظ علم البيان، مركزا على البيان اللساني الذي حصل للعرب .

وقد جعل الجاحظ اللفظ أرقى وسائل التواصل الانساني، ولما كانت للفظ أهمية كبيرة توسع فيه وبين كيف يكون شكله مفردا أو مركبا، وأين تكون اللفظة مقبولة وأين لا تكون، فاللفظ عنده هو الكلام المستقل والمركب في وحدات وظيفية ترتبط بعضها ببعض من حيث علاقتها بالمحيط المعبر عنه، ،" ولا يحصل البيان دون هذه الالفاظ التي هي المادة الاولى للكلام .[35]ومن خصائصه انه "يستعمل للقريب الحاضر وللشاهد الراهن،".[36]

ويقف الجاحظ جنبا إلى جنب مع علماء اللغة المعاصرين حين يقول وفهمك لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجردا، وابعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك والمعاون لك ما كان صياحا صرفا وصوتا مصمتا ونداء خالصا، ولا يكون ذلك إلا وهو بعيد عن المفاهمة وعطل من الدلالة فجعل اللفظ لأقرب الحاجات والصوت لأنفس من ذلك قليلا" .[37] وهو قانون أقر به المختبر الصوتي الحديث عند دراسته للتقطيع الصوتي.

ويرى ادريس بلمليح "ان الجاحظ يعد مؤسس نظرية سيميائية واضحة المعالم" [38]، ويستند في ذلك إلى السياقات التي تحدث فيها عن الاشارة ودورها في التواصل الانساني اذ يقول الجاحظ في هذا الصدد :" الاشارة التي تكون باليد والرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجرا ويكون وعيدا" .[39] وكل السياقات التي وردت فيها الاشارة تنبئ عن ادراك الجاحظ العميق لهذه الوسيلة التعبيرية التي اصبحت علما مستقلا في عصرنا الحاضر ألا وهو علم العلامات أو السيميولوجيا .

والجاحظ كثيرا ما يجمع بين الاشارة واللفظ يقول " الاشارة واللفظ شريكان نعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه، وما كثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط" .[40]فقد يحصل للغة العادية تشويش على البيان أو التواصل، وهنا تتدخل الاشارة لتؤدي دورها في عملية التواصل فهي تارة أعمق

وأبلغ ولها مواقفها التي تنوب عن اللفظ.[41] ويمكن أن نستخلص تبعا لهذا أن الجاحظ قد ادرك أن الاشارة لغة شبيهة بلغة الكلام وأن لها نظامها الخاص الذي يشكل مواضعة اجتماعية تجعلها لغة قائمة بذاتها.

واللسانيات الحديثة تقر بأهمية الوسائل الخارجية في كل تأدية كلامية ، وطغيانها على الوسائل اللسانية المحضة ادى ببعضهم الى القول " ان التبليغ لا يتم بواسطة العلامات اللسانية فحسب وإنما بوسائل رمزية تحيط بهذه العلامات وتحف بها من كل جانب" .[42] يقول محمد كشاش " لقد عرفت الحضارة العربية علم العلامات ومارسه الناس في حياتهم واعتمدوا عليه في اتصالاتهم قبل ان يقعدوا قواعده، وإذا كانت حقول السيميائية الحديثة تتضمن التواصل الاشاري الصوري يصبح الجاحظ بما ضمن في بيانه سيميائيا من الدرجة الأولى، ومن الممارسة العملية الطبيعية الى رحاب الدراسات الجادة المنهجية تطل دراسة الجاحظ التي تعتبر بحق بحثا سيميائيا أصيلا ".[43]

4. دورة التخاطب: "ويقصد بها مجموعة من المفاهيم مرتبطة بعدد من الرموز اللغوية تعتمد على فكرة أساسية ومؤداها ان كل أثر أو حدث لغوي يتضمن في ثناياه رسالة ومرسل ومتلق وشفرة".[44] وبما أن أي نظام تواصلي لا يمكن أن يتأكد إلا بالتحقق من اشتمال الطرف الآخر وفك الرموز والشفرات، لا بد من تأمل هذه السلسلة المتصلة من العمليات بجميع مراحلها، ومحاولة إضاءة الجوانب المظلمة منها.

والجاحظ بنظرته العلمية المتفحصة لم يغفل عن هذه التجربة الجزئية بل راح يعطي للمتكلم الحق في اختيار النظام التواصلي الأقدر على تحقيق الفهم والافهام، سواء كان صوتيا أو إشاريا مع التركيز على أهم نقطة وهي اللغة المشتركة بين المتكلم والسامع معبرا عنها بالبيان، فإذا تحققت هذه الشروط تحقق التواصل إذ يقول: " ومدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل إنما هو الفهم

والافهام" .[45] ورغم انه لم يذكر بصريح العبارة أنه بصدد تناول العملية التواصلية إلا أن أسلوبه وتعبيره ينم عن فهمه العميق لمراحل العملية التخاطبية حين يقول: " ومدار الأمر .....الفهم والافهام والطلب والتثبت"[46]، فالفهم بقابل العملية النفسية في الاصطلاح الحديث في حين يقابل الإفهام كل من العمليتين الفيزيولوجية والفزيائية، أما الطلب فيمثل رد الفعل الذي يمارسه المخاطب وطلب توضيح المعنى والتوضيح الذي يقدمه المتكلم هو التثبت.

أما دورة التخاطب عند المحدثين فهي " تلك الدورة التي تتم بين المتكلم والسامع عبر عناصر أساسية هي المرسل والمرسل إليه والسياق الجامع بينهما، والمقصود به الظروف الاجتماعية والنفسية التي أحاطت بالعملية إضافة إلى الرسالة، وهي الخبر المنقول في مخطط التواصل والشفرة ويقصد بها البرامج التي يتم بها فهم العناصر على مستوى الجهاز العصبي وأخيرا القناة وهي همزة الوصل بين المتخاطبين." .[47]

بمقارنة بسيطة يتضح أن الجاحظ تحدث عن بعض هذه العناصر بمرادفاتها والسياق عنده مقتضى الحال، وأغفل أخرى مثل القناة والشفرة، ويتبلور هذا المفهوم أكثر في معرض حديثه عن سيدنا موسى عليه السلام والوحي الذي تلقاه من الله تعالى على شكل رسالة ليبلغها للناس، فالمتفهم هو سيدنا موسى الذي يصبح مفهما في المرحلة الثانية على لسان قومه أي لغتهم، حيث أمره الله تعالى بالافصاح عن أدلته والابانة عن حجته، فقال حين ذكر العقدة التي في لسانه " واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي"، لأنها تحول دون وصوله إلى الهدف المنشود وهو البيان، وتوصيل الرسالة، وتأدية المعنى على أكمل وجه " رغبة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والنفوس إليه أسرع والعقول عنه أفهم،" .[48] فكل هذه الاعتبارات تدل على أن الجاحظ في طرحه لقضية المفهم والمتفهم قد فكك عناصر الرسالة الكلامية وأصل للدور الذي يختص به كل عنصر يؤكد ذلك قوله: "والمفهم والمتفهم شريكان في الفضل إلا أن المفهم أفضل من المتفهم" .[49] وهنا يتعرض إلى مراحلها منطلقا من شرروط

الانتاج الجيد إلى متطلبات الحصول على الاجابة المرجوة، ويبدأ بالمتكلم أو المرسل ويشترط فيه عدة ميزات مثل الطلاقة، واجتماع آلة البيان".[50] وهذا ما يدل على أن بيانه كان لسانيا بالدرجة الأولى.

وبما أن المتلقي أو المرسل إليه الطرف الثاني من العملية التواصلية وهو المستهدف بها، راح الجاحظ يحث المتكلم أن يدرس أحوال المخاطب النفسية والاجتماعية وطبيعة اللغة وكذا قدرته الاستعابية، وهذا ما لا يدع مجالا للشك في أهمية نظريته اللغوية في مجال التواصل يقول: " لأن مدار الأمر إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم" .[51]. " وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وأقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات" .[52] فالمخاطب هو الآخر مطالب بإنجاح العملية الخطابية بحسن الاصغاء والانتباه، ثم الخطاب أو الرسالة المعبر عنه بمقتضى الحال الذي ربطه بأقدار المستمعين والطبقات، لأن النجاح في التواصل أو الفشل فيه مرهون بهذه المعطيات الظرفية، وجمال النص بسياقه، وتقاس نجاعته أي إصابة الهدف التواصلي بنسبة موافقته للمقام .[53]وجاءت المدارس اللسانية الحديثة لتؤكد ما نظر إليه الجاحظ، وتربط الأداء الكلامي في موضع التواصل بعوامل أخرى والانتباه والسياق الاجتماعي، والعلاقات النفسية والاجتماعية بين الباث والمتلقي في التواصل.

5.**خاتمة:** فكانت هذه العناصر كلها دليل على الفكر الثاقب وبعد النظر الذي تميز به الجاحظ وسبق به أبناء عصره بقرون كثيرة ،ممهدا لكثير من الأبحاث اللغوية التي لا يمكن ان نمر عليها مرور الكرام لا لشيء سوى لأن المدارس اللسانية الحديثة أكدت كل ما بثه الجاحظ في ثنايا كتبه من آراء لسانية، ويبقى جزء كثير من الآراء اللسانية عند الجاحظ مبثوثا في ثنايا كتبه بحاجة إلى إعادة قراءة وتمحيص ليخرجه الباحثون إلى العلن لتكتمل الفكرة القائلة بأن الأبحاث اللغوية المعاصرة هي امتداد

للمدرسة القديمة في ثوبها الجديد وليحافظوا على خصوصية اللغة العربية في ظل النظريات اللسانية المعاصرة التي منها ما يصلح تطبيقه على العربية ومنها ما لا يصلح.

التهميش:

2 سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الأفاق العربية، ط1، 2001، ص76.
3 عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت، 2000، مج1، ج2، ص32.
4 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1992، ج1، ص198.
5 ابن خلدون، المقدمة، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، دط، 545.
6 عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي وفقه اللغة العربية، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص11.
7 سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، 2001، ص134.
8 مراد العرابي، أصناف الدلالة عند الجاحظ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، 2003، ص27.
9 الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1985، ج1، ص76.
10 بلعيد صالح ، نظرية النظم، دار هومة، الجزائر، دط، 2004، ص133.
11 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص75.
12 المرجع السابق، ج4، ص46.
13 المرجع السابق، ج1، ص162.
14عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2004، ص167.
15 فردينان دي سوسور، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، مجيد نصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، دط 1986، ص80.
16 عبد العيز سعد مصلوح، في اللسانيات العربية المعاصرة دراسات ومناقشات، عالم الكتب، ط1، 2004، 225.
17 الجاحظ، الحيوان، ج1، ص47، 48.
18 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص175.
19 نفسه، ج1، ص386.
20 الجاحظ، الحيوان، ج1، ص36.
21 صالح بلعيد، نظرية النظم، دار الهومة، الجزائر، دط، 2004، ص133.
22 محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، دار افريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص194.
23 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.
24 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص141.

25 الجاحظ، الحيوان، ج3، ص131.
26 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص74.
27 المرجع السابق.
28 الجاحظ، الرسائل الأدبية، تحقيق علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأخيرة، 2004، ج1، 163.
29 صالح بلعيد، نظرية النظم، ص64، 65.
30 سوسور، محاضرات في الألسنية العامة، ص32.
31 المرجع السابق، ص35.
32 الجاحظ، الحيوان، ج1، ص30.
33 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص79.
34 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.
35 صالح بلعيد، نظرية النظم، ص114.
36 الجاحظ، الحيوان، ج1، ص80.
37 الجاحظ، الحيوان، ج1، ص47، 48.
38 ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، ص131.
39 الجاحظ، الحيوان، ج1، ص77.
40 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص78.
41 صالح بلعيد، نظرية النظم، ص114.
42 محمد االصغير بناني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1994، ص246.
43 محمد كشاش، الأصول اللسانية العربية، موسوعة أطلس العالم، شبكة منابر ثقافية، 2004، 2010، ص246.
44 سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي، ص139.
45 الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص76.
46 الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص76.
47 بوقرة نعمان، محاضرات في اللسانيات العامة، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، دط، 2006، ص109.
48 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص7.
49 الجاحظ، البيان والتبيين، }1، ص11.
50 عبد الواسع الحميري، شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي، مجد المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، دط، 2004، ص124.
51 الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص193.
52 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص138.
53 محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1999، ص203.

5. قائمة المراجع:

قائمة المصادر:

- ابن خلدون، المقدمة، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، دط.
- ابن منظور،1992، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- الجاحظ،1985. البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر.، الرسائل الأدبية، 2004تحقيق علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأخيرة، ج1،الحيوان،1985، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط4.
- عبد الله محمد بن أحمد القرطبي،2000. الجامع لأحكام القرآن، تح سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت.

المراجع:

- ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، ط1.
- بلعيد صالح ،2004، نظرية النظم، دار هومة، الجزائر، دط.
- بوقرة نعمان، 2006، محاضرات في اللسانيات العامة، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، دط.
- سمير سعيد حجازي،2001، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1.
- عبد الجليل مرتاض،2004، في رحاب اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، دط.
- عبد العزيز سعد مصلوح، 2004، في اللسانيات العربية المعاصرة دراسات ومناقشات، عالم الكتب، ط1
- عبد الكريم مجاهد،2005، علم اللسان العربي وفقه اللغة العربية، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1.

- عبد الواسع الحميري،2004، شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي، مجد المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، دط.

- فرديناند دي سوسور،1986، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، مجيد نصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، دط.

- محمد الصغير بناني، 1994، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط.

- مراد العرابي، 2003.أصناف الدلالة عند الجاحظ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر.

- محمد العمري1999، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، دار افريقيا الشرق، المغرب.

- محمد كشاش،2004، 2010. الأصول اللسانية العربية، موسوعة أطلس العالم، شبكة منابر ثقافية.